مجلة العلوم الاجتماعية والإنسانية
Journal of Social Sciences and Humanities
المجلد: 15/ العدد: 01 (2025)، ص 465 - 483

منهج المدرسة الفرنسية في دراسة آثار تلمسان الزيانية – الإخوة وليام وجورج مارسي أنموذجا)
(L'approche de l'école française dans l'étude des antiquités de Tlemcen Al-Zayaniyya - les frères William et George Marcy comme exemple).

سهيلة دهمش *
1 دكتورة في التاريخ الوسيط. جامعة محمد بوضياف بالمسيلة
الإيميل: souhiladehmeche28@gmail.com

تاريخ الاستلام: 2024/02/12 تاريخ القبول: 2024/11/09 تاريخ النشر: 2025/06/11

ملخص:

سخر الاستعمار الفرنسي كل الإمكانات البشرية والمادية لبسط سيطرته ونفوذه على الجزائر، كما عمل على طمس الهوية الوطنية بمختلف الطرق والوسائل، لذا وظفت السلطات الاستعمارية أقلام مؤرخيها وفرشاة رساميها و موالج منقبيها وآثاريها، لإعادة صياغة تاريخ الجزائر بما يخدم أجندتها الاستعمارية في تشويه تاريخنا على مر العصور، وهو هدفهم الأسمى من جميع المؤلفات والدراسات التي عنيت بتاريخ الجزائر، وكان من بين هذه المؤلفات ما كتبه الأخوين وليام وجورج مارسي (Georges et William Marcais) واللذين ارتبط اسمهما بتاريخ الجزائر وآثارها خاصة في الفترة الوسيطة، وما تعلق منها بتاريخ تلمسان عاصمة الزيانيين وآثارها المعمارية، وتتضمن هذه الدراسة البحث حول منهج الأخوين مارسي في دراستهما لآثار تلمسان الزيانية من الناحية التاريخية، ونسبتهما لمعظم المنجزات العمرانية لغير الزيانيين، سواء المرينيين أو الأندلسيين وتأكيدهما على تأثر العمارة الزيانية بالطابع القوطي والفارسي والمسيحي وغيرها، وخلوها من اللمسة الزيانية الأصيلة إلا ما ندر، وعليه هدف الدراسة هو تبيان مدى التزام الأخوين مارسي بالمنهج العلمي والموضوعية في دراساتهما حول تلمسان الزيانية، ولإثبات ذلك اتبعت في هذه الدراسة المنهج التاريخي التحليلي، ومن بين أهم النتائج المتحصل عليها أن دراساتهما حوت الكثير من المغالطات حول فضل التلمسانيين في بناء صروحهم وتشييدها والإبداع فيها، والتي ما زالت ماثلة أمامنا على اليوم.

* المؤلف المرسل: سهيلة دهمش ، الإيميل souhiladehmeche28@gmail.com :

كلمات مفتاحية: الاستشراق، مدرسة الحوليات ، التنقيب الأثري ، تلمسان ،العصر الوسيط.

Abstract:

French colonialism harnessed all human and material capabilities to extend its control and influence over Algeria. It also worked to obliterate the national identity in various ways and means. Therefore, the colonial authorities employed the pens of their historians, the brush of their painters, and the trowels of their excavators and archaeologists to reformulate the history of Algeria in a way that serves their agenda of distorting our history throughout the ages, which is Their ultimate goal is among all the books and studies concerned with the history of Algeria, and among these books was what was written by the brothers (Georges et William Marcais), whose names were linked to the history of Algeria and its antiquities, especially in the middle period. To prove this, I followed the historical and analytical approach in this study, and among the most important results obtained is that their studies contained many fallacies about the merit of the Tlemcen people in building and constructing their monuments and creativity in them, which are still before us today.

Keywords: Annales School , archaeological excavation, Orientalism, The brothers Marcais , the Middle Ages, Tlemcen **.**

Résumé :

Le colonialisme français a exploité toutes les capacités humaines et matérielles pour étendre son contrôle et son influence sur l'Algérie. Il a également travaillé à anéantir l'identité nationale de diverses manières et moyens. C'est pourquoi les autorités coloniales ont utilisé la plume de leurs historiens, le pinceau de leurs peintres et les truelles de leurs fouilleurs et archéologues pour reformuler l'histoire de l'Algérie d'une manière qui serve leur programme de déformation de notre histoire à travers les âges, ce qui est leur but ultime parmi tous les livres et études traitant de l'histoire de l'Algérie, et parmi ceux-ci livres, c'est ce qu'ont écrit les frères (Georges et William Marcais), dont les noms étaient liés à l'histoire de l'Algérie et de ses antiquités, notamment dans la période intermédiaire, et ceux liés à l'histoire de Tlemcen, la capitale de les Zaians et ses monuments architecturaux. Cette étude comprend des

recherches sur l'approche des frères Marcais dans leur étude des antiquités de Tlemcen Zayaniya dans une perspective historique, et leur attribution de la plupart des réalisations architecturales à des non-Zayanides, qu'ils soient Mérinides ou Andalous, et leur accent sur l'influence de l'architecture Zayani par le caractère gothique, persan, chrétien et autre, et qu'elle est dépourvue de la touche authentique Zayani, sauf ce qui est rare, et cela a un but. L'étude est de démontrer l'étendue de l'engagement des frères Marcais dans le méthode scientifique et objectivité dans leurs études sur Tlemcen Al- Zayaniya Pour le prouver, j'ai suivi l'approche historique et analytique de cette étude, et parmi les résultats les plus importants obtenus, c'est que leurs études contenaient de nombreuses erreurs sur le mérite du peuple de Tlemcen dans la construction et la construction de ses monuments et de sa créativité, qui sont encore aujourd'hui devant nous aujourd'hui.

Mots clés : Ecole des Annales, fouilles archéologiques, Les frères Marcais, Moyen Âge, Orientalisme ,Tlemcen.

المقدمة:

كثيرة هي الدراسات الاستشراقية حول تاريخ وآثار الجزائر في العصر الوسيط وخاصة الدراسات التاريخية الفرنسية، والتي تعددت مواضيعها فلم تقتصر على جانب دون الآخر فكل شيء يتعلق بالجزائر تمت دراسته على أن تصب هذه الدراسات في مصلحة السياسة الفرنسية وأهدافها الاستعمارية، حيث شملت البحوث والدراسات كل ما يتعلق بالجزائر وعلى مر العصور بدءا باللغة والعادات والتقاليد، اللباس، الطعام، الاحتفالات، ..الخ، لكن الأخوين وليام وجورج مارسي اهتما بدراسة مدينة تلمسان كحاضرة وعاصمة للزيانيين بالمغرب الأوسط، حيث كان لها خصوصية وانفراد كونها ظلت ولعدة قرون بعد زوال الملك الزياني (633-962هـ/ 1235-1554م) محافظة على نمطها العمراني المنفرد والمبهر لكل من رآها وهو ما أسال حبر الباحثين والمؤرخين حولها كما ألهم الرسامين، ومن بين من سلبتهم تلمسان الاهتمام نجد الأخوين وليام وجورج مارسي اللذان خصاها بالدراسة والتقصي، وآثارها بالتنقيب، وجمالها بالرسم والتلوين، وركزا أكثر على الجوانب المعمارية حيث كانت لهما وجهات نظر حول مساهمة الزيانيين في الإرث المعماري والعمراني لتلمسان، والتعرف على منهجهما في تدوين تاريخ تلمسان الزيانية من خلال مؤلفاتهما.

الإشكالية الرئيسية لهذه الدراسة تدور حول مدى التزام الأخوين وليام وجورج مارسي بالموضوعية العلمية في دراستهما لعمران تلمسان في الفترة الزيانية (633-962هـ/ 1235-1554م)؟

ومن هنا نطرح الإشكالات التالية:

- ما مدى التزام الأخوين مارسي بالموضوعية في دراساتهم التاريخية والأثرية؟
- هل تجرد الأخوين مارسي من أهداف الحكومة الفرنسية في تشويه الحقائق التاريخية لكل ما هو جزائري؟

أهداف الدراسة:

- التعرف على الإخوة مارسي ومؤلفاتهما حول تلمسان في العهد الزياني(633-962هـ/ 1235-1554م).
- التعرف على أهم مصادر المعلومات التي اعتمدا عليها في كتاباتهم.
- تحليل منهجهما في البحث الأثري والكتابة التاريخية.
- تبيان مدى التزامهما بالمنهج العلمي للبحث التاريخي.

أولا: ترجمة شخصية للأخوين وليام وجورج مارسي.

1- وليام مارسي: 1872-1956م.

ولد وليام في مدينة مرسيليا سنة 1872، وهو مستشرق فرنسي تحصل على شهادة الدكتوراه في القانون سنة 1898م، ثم أصبح مدير مدرسة تلمسان سنة 1898 (نجيب العقيقي، 1964، ص273)، بعدها أصبح مدير مدرسة الجزائر من سنة 1904 إلى غاية 1910م، إن تحوله من دراسة القانون إلى التخصص في اللغة العربية العامية الجزائرية الدارجة لخير دليل على تبنيه الطرح الفرنسي في معرفة ذهنيات وعادات وطبائع الجزائريين من خلال الاندماج داخل المجتمع، لفهمه ومعرفة نمط تفكيره.

عمل وليام مارسي أستاذا بالمدرسة الإسلامية وقال عنه أخوه جورج: (عندما عين أخي وليام مارسي مدير مدرسة تلمسان كتب لي عن الآثار الجليلة الرائعة التي تشهد على روعة تلمسان القديمة، وهكذا ولدت لدي رغبة للتعرف على الفن الإسلامي، وبدأت في اعداد شهادة في التاريخ وفي نفس الوقت أتعلم اللغة العربية)، ثم شغل منصب مفتش عام للتعليم الابتدائي للأهالي في الجزائر سنة 1909-1913م، بعدها أستاذ كرسي اللغة العربية الشمال إفريقية في مدرسة اللغات الشرقية من 1920-1927م(عبد الرحمان بدوي، 2003، ص.547)؛ (يحي مراد، 2004، ص 994)

استدعته مدرسة الدراسات العليا ومعهد فرنسا في باريس أستاذا فيهما (نجيب العقيقي، 1964، ص274) ثم أستاذ بكلية فرنسا 1927-1942 وعضو معهد أكاديمية النقوش والآداب الجميلة 1927م(يحي مراد، 2004، ص. 994)، معظم كتاباته طغى عليها الجانب اللغوي والأدبي، فألف المعجم

سنة 1942م وهو قاموس كبير جمع فيه اللهجات المغربية ونصوصها وأصواتها، كما له مقال كيف استعرب شمال إفريقيا في مجلة معهد الدراسات الشرقية 1938(نجيب العقيقي، 1964، ص275) توفي وليام سنة 1956م، (يحي مراد، 2004، ص. 994) عن عمر ناهز أربعة وثمانون سنة.

2- ترجمة جورج مارسي (Georges Marçais) 1876-1962م.

جورج مارسي مستشرق فرنسي ولد في 11 مارس 1876 بمدينة رين الفرنسية، ودرس بمدرسة الفنون الجميلة بباريس وهو ما أفاده فيما بعد في مشواره المهني، تحصل على ليسانس سنة 1904 ثم تحصل على شهادة الدكتوراه في الأدب سنة 1913، يذكر أن أول مرة زار فيها تلمسان كانت سنة 1902م حيث قدم مع أخيه وليام، ويعتبر جورج كاتبا بارزا وعالم آثار فدرس بالمدرسة الإسلامية بقسنطينة سنة 1919م(p. Elisabeth Cazenave, 2010,322)؛وتحصل على شهادة الدكتوراه في علم الآثار الإسلامية من كلية الجزائر العاصمة سنة 1929م، عن أطروحة بعنوان: العرب في برباريا من القرن 11 – 14 م من جامعة السوربون والذي أصدره فيما بعد ككتاب بعنوان معدل، وأنشأ فيما بعد كراس الآثار الإسلامية سنة 1919-1920، وعمل مديرا لمتحف الآثار والفنون الإسلامية الجزائري، ثم مدرسا لمعهد الدراسات الاستشراقية سنة 1935م، ثم عضوا في أكاديمية الآداب الجميلة سنة 1940 (نجيب العقيقي، 1964، ص.286) ، ثم مديرا لمعهد الدراسات الشرقية إلى غاية 1946 (Evelyne Disdier ,2017,p35) ، وبعدها حصل على الجائزة الكبرى في الجزائر سنة 1952م، كما أصدر حوليات في عدة مجلدات واللهجات المنطوقة والمكتوبة في الأندلس، إلا أن أكثر أعماله شهرة هي تلك المتعلقة بتاريخ أثار تلمسان والمناطق المحيطة بها، أهمها الآثار العربية القديمة في تلمسان سنة 1903 (نجيب العقيقي ، 1964،ص.286) والذي صنفه رفقة أخيه وليام وهو المؤلف الذي سأركز عليه في هذه الدراسة.

ترك جورج مارسي العديد من الرسومات واللوحات الفنية التي رسمها بين 1900-1960 منها سبعة عشر لوحة مرسومة بالحبر، بالإضافة إلى مخططات المباني وأجزاء من المقرنصات والأعمدة والزخارف المعتمدة في الأبنية الزيانية، والتي ضمن بعضها في مؤلفاته ومن أهم أعماله في ميدان الكتابة والتأليف ما تعلق بالتاريخ والفن والآثار حول تونس والمغرب والجزائر، والتي تم احصائها في مقال حول مكتبة الأيقونات وأرشيفات الباحثين وكان جورج مارسي من بين أهمهم، (Evelyne Disdier ,2017,p35) ، أذكر على سبيل المثال لا الحصر بعضها، وما يهمنا هو ما تعلق بتاريخ الجزائر في العصر الوسيط (الفترة الزيانية).

- تاريخ العرب في بلاد البربر من القرن الحادي عشر على القرن الرابع 1913.
- كتابة على قبر تلمساني سنة 1918.
- الفن الإسلامي والعمارة 1927، و الذي أعاد نشره سنة 1954 بعدما أضاف للدراسة عدة دول أخرى كالأندلس وصقلية.

- تلمسان مدينة الفن والتاريخ، مقال في المجلة الافريقية 1936.
- جامع تلمسان ضمن حوليات معهد الدراسات الشرقية 1949-1950.
- أشهر مدن الفن تلمسان سنة 1950
- العمارة الإسلامية في الغرب سنة 1955
- الجزائر في العصور الوسطى المعالم التاريخية والمناظر الطبيعية سنة 1957
- المدن والأرياف في الجزائر سنة 1958. (نجيب العقيقي ، 1964، ص286-287)

تمتع جورج بقدرة فائقة على رسم المخططات والأشكال لكونه في الأصل رسام إذ قال عن نفسه: (كنت أهوى الرسم وأمتهنه)، (جورج مارسي ، 1936، ص. 99- 100)، توفي في 20 ماي 1962م بباريس (p. Elisabeth Cazenave, 2010,322)؛(نجيب العقيقي، 1964، ص.286).

ثانيا: الدراسات التاريخية الاستشراقية وبروز المدرسة الفرنسية في دراسة تاريخ تلمسان في العصر الوسيط.

الحديث عن الدراسات التاريخية الاستشراقية يحيلن بداية للتعرف على المقصود بالاستشراق، إذ وردت فيه تعريفات كثيرة أهمها أن الاستشراق هو علم تاريخ شعوب الشرق وحضارتهم ولغاتهم وآدابهم وفنونهم ومعتقداتهم، نشأ بدافع ديني في الغرب وجعل دراساته في خدمة التنصير الذي مهد للاستعمار، فالاستشراق في مراحله الأولى عاش في كنف الكنيسة ترعاه وتوجهه (شوقي خليل، 1998، ص.6)، كان الهدف من الاستشراق هو تسهيل الحركة الاستعمارية للشعوب سياسيا وثقافيا وعسكريا وهو ما فعلته فرنسا بالجزائر.

كثيرة هي الدراسات الاستشراقية حول آثار وتاريخ الجزائر بشكل عام، وبتاريخ تلمسان في الفترة الزيانية بشكل خاص لما شهدته هذه المرحلة التاريخية من زخم حضاري، فبغض النظر عن الأهداف الأيديولوجية للمدرسة الفرنسية من وراء عمليات التنقيب والكتابة في تاريخ الجزائر في مختلف المحطات التاريخية، فإنها تطرقت في مجملها للحديث عن التاريخ الأنثربولوجي لهذه الأخيرة مجندة في ذلك جل باحثيها ومؤرخيها وعلماء الآثار بها، حتى الهواة منهم كان لهم دور بارز في العمل الاستكشافي والتدويني في محاولات متواصلة لطمس الهوية التاريخية للجزائر، ويمكن القول: حسب رأي الباحث وليد موحن أن الكتابة التاريخية قد شهدت نقلة نوعية من حيث المنهج والمواضيع، قادتها المدارس الاستشراقية وعلى رأسها المدرسة الفرنسية والتي عرفت بمدرسة الحوليات (وليد موحن، 2017، 170-171)، حيث طبعت هذه المدرسة بأسلوبها ومنهجها مجال الكتابة التاريخية، وأدت مدرسة الحوليات وأجيالها من المؤرخين

الفرنسيين إلى ظهور (التاريخ الجديد) بوصفه استمرارا لفكر مدرسة الحوليات الاسم الاول للمجلة التاريخية والتي أسست سنة 1929م في جامعة ستراتسبورغ ، أطلق عليها اسم "أنال للتاريخ الاقتصادي والاجتماعي"،(جاك لوغوف، 2007، ص.17-19)؛ (محمود عبد الواحد محمود، 2013، ص.20)

في سبيل بلوغ أهدافه سعى الاستعمار الفرنسي خلال الحقبة الاستعمارية للجزائر (1830-1962م) إلى تكوين نواتات جامعية تهدف لتوفير ما تحتاجه المؤسسة الاستعمارية من الكوادر (جاك لوغوف،2007، ص. 20) وكانت تلمسان الزيانية من أهم الموضوعات دراسة وتحقيقا وتنقيبا، والتي ركزت في مجملها على رصد الجوانب الدينية والتكوين التاريخي واللغوي والثقافي، قصد استغلالها في فهم السلوك الديني والحضاري رغبة في إخضاع الجزائريين مستقبلا للهيمنة الفرنسية، ولما كان وليام مارسي أعلم الناس من الفرنسيين بالعقيدة الإسلامية ومعتقدات الجماهير وميولها السياسية والاجتماعية في المغرب (نجيب العقيقي ، 1964، ص.274) مقارنة بغيره من المؤرخين خصوصا وأن كتاباته كانت بإشراف من وزارة الحربية الفرنسية، تحت مظلة دراسة التاريخ والآثار والفنون والعلوم الطبيعية ولذلك أنشأت لجنة التنقيبات العلمية بالجزائر سنة 1837 ثم جمعية قسنطينة للآثار 1853 وبعدها الجمعية التاريخية سنة 1856 والتي أصدرت المجلة الإفريقية فيما بعد.

ثالثا: منهج الأخوين جورج ووليام مارسي:

إن قيمة الآثار التلمسانية هي التي استهوت الأخوين لتخصيصها بالدراسة، غير أننا عند تتبعنا لتصريح جورج مارسي في مقدمة كتاب المعالم الأثرية لتلمسان، والذي ألفه رفقة أخيه وليام فإنا نجده قد ذكر بأنه يأمل من خلال هذا العمل إلى أن يبرز التشابه الجلي بين العمارة التلمسانية والمعالم الأندلسية (جورج ووليام مارسي، 2011،ص. 18) حتى قبل بداية استعراضه لمحتوى الكتاب، وهو ما يجعلنا نتساءل عن مدى التزامه بالموضوعية وهو قد أصدر حكما تقيميا بأن الآثار التلمسانية مقتبسة عن نظيرتها الأندلسية! والكتاب هو فقط لتأكيد ذلك، على كل سنعرج بادئ ذي بدء على مختلف الوسائل والتقنيات ومصادر المعلومات التي اعتمدها الأخوين في عملهما، وبعدها سنتتبع موقفهما وما توصلا إليه من نتائج.

1/ مصادر المعلومات حول الآثار والعمائر التلمسانية في الفترة الزيانية:

1- الترجمة:

اعتمد الأخوين في دراساتهم وأبحاثهم على عملية الترجمة للوثائق والمخطوطات الزيانية من لغتها الأصلية إلى اللغة الفرنسية، وما ساعدهما في ذلك أنهما كانا يجيدان الحديث والكتابة بالعربية، سواء بالعامية أو بالفصحى بحكم تكوينهما الأكاديمي، ودليلنا في ذلك أن جورج تخصص في دراسة اللغة العربية وكان يتقنها كتابة وخطابة، وكذلك الأمر بالنسبة للهجات شمال إفريقيا خاصة لهجة أهل تلمسان وأولاد إبراهيم بالقرب من وهران (نجيب العقيقي، 1964، ص274)، تجدر الإشارة إلى أن فرنسا ركزت في مشروعها الاستعماري على تعليم عسكريها وإداريها اللغة العربية وأسست لذلك مدارس ومعاهد مختصة، فتعلم لغة الجزائريين ولهجاتهم كان من أهم الأولويات.

2- **المشاهدة والرسم والتصوير لجمع المادة العلمية:**

اعتمد الأخوين على المشاهدة المباشرة للمخلفات والقطع الأثرية، حيث ذكر جورج بأنه كان يتمتع بجمال عمارة المساجد لحد أنه يبقى لمدة طويلة من الوقت وهو يرسم بعض زوايا المسجد الجميلة بأقواسها وزخرفتها كيف لا وهي مدينة الآثار والتاريخ ، (جورج مارسي، 1936، ص 99-100)، إن معظم مواضيع لوحات جورج مارسي هي عبارة عن رسم للمباني والشوارع والطرق وحتى حياة الناس اليومية في الأزقة والأسواق، لكن ما استحوذ على اهتمامه هو تلك التفاصيل الصغيرة التي حوتها العمائر من زخرفة ورسوم وتقنيات لم يشاهد مثلها من قبل في أي نوع من البنايات الأوربية، وهو ما يمكن تسميته بالخصوصية المغربية الاسلامية.

بعض مصادر الرسومات التي تحصل عليها الأخوين كانت من الوثائق الرسمية مثل بيانات العمران التلمساني الواردة في ملفات المعالم الأثرية، أما الرسومات فقد رسمت سنة 1902، والجدير بالذكر أن من كان يقوم بالرسم هو جورج لأنه تخصصه فقد حوى كتاب المعالم الأثرية إثنان وثمانون رسم وشكل تخطيطي لمختلف القطع الأثرية بالإضافة إلى ثلاثون لوحة مرسومة بيده، بينما ساهم كل من ستيفن غزال والنقيب برتيلون في الحصول على الصور، بل حتى أن النقيبين وشانترون وبيردريزي كانا يقومان بأعمال التصوير (جورج ووليام مارسي، 2011، ص.19) ويمنحان الصور للأخوين بغية استعمالها في أبحاثهما وكتاباتهما، وهنا يتضح لنا جليا مدى التعاون بين السلطات الفرنسية التي وضعت تحت تصرفهما وتصرف غيرهم من المهتمين بالتاريخ والتراث كل الوثائق والبيانات الرسمية، كما ساهم الأفراد كل حسب إمكاناته وتخصصاته في دعم المشروع الاستعماري.

3- **الاعتماد على المجموعات المتحفية واللقى الأثرية:**

التاريخ يكتب اعتمادا على الوثائق المكتوبة، إن وجدت لكن يمكن بل يجب أن يكتب اعتمادا على كل ما يستطيع الباحث، بمهارته وحذقه، أن يستنبطه من أي مصدر ، (عبد الله العروي، 2005، ص.81)، وبما أن النصوص كانت مفقودة فقد اعتمد الأخوين على محتويات المتاحف الجزائرية، خاصة متحف تلمسان الكثير من القطع واللقى الأثرية التي جمعت في فترات مختلفة، فقام بجمعها أثريون ومنقبون فرنسيون قبل الأخوين مارسي، أمثال شارل بروسلار بداية من سنة 1857م والذي نوه إليه وليام مارسي في كتابه حول مقتنيات متحف تلمسان، وذكر أن الفضل الأول يعود إليه في جمع واقتناء مختلف الأغراض الأثرية، إذ خصص لها قاعة على مستوى مبنى بلدية تلمسان حيث تعتبر هي النواة الأولى لمجموعات متحف المدينة (وليام مارسي، 2011، ص.10). كما ساهم الأخوين في إضافة مجموعات جديدة، والتي عثرا عليها في أماكن متفرقة من البلاد الجزائرية خاصة الأراضي التلمسانية وأضافاها للمتاحف خاصة متحف تلمسان.

4- **التقارير الأثرية:**

ساهمت التقارير الأثرية في منح الأخوين معلومات مهمة جدا حول العمارة في تلمسان الزيانية، خاصة وأن إعداد التقارير الأثرية تم بناء على أوامر الإدارة الفرنسية أين أنجز ثلاثة عشر مصنف حول محتويات المتاحف، التي خصتها فرنسا بالتصنيف بين تونس والجزائر(وليام مارسي، 2011، ص 8)، غير أنه من بين هذه المصنفات يوجد مصنفان فقط لآثار تونس هما المتحف العلوي ومتحف (LaVigeri) لافيجري، أما باقي المصنفات فكانت حول آثار الجزائر، قد يدل هذا على الكم الهائل من المخلفات الأثرية الجزائرية والتي حوتها هذه المصنفات مقارنة بنظيرتها التونسية، أو أن التركيز كان منصبا أساسا على الجزائر في المرتبة الأولى لما تمثله من قيمة لدى الإدارة الاستعمارية، واعتمد الأخوين على محتويات هذه المصنفات في كتاباتهم خاصة وليام في مؤلفه حول مقتنيات متحف تلمسان.

5- جمع المقتنيات والقطع الأثرية:

إن المشروع الاستعماري كان مبني على محو الهوية الوطنية الجزائرية وكل ما من شأنه التذكير بتاريخ الجزائر العريق، لذا حاولت فرنسا قطع الجذور التاريخية للشعب الجزائري من خلال إزالة كل ما يمكن أن يثبت أصالة الجزائر وعراقتها، لذا عملت السلطات الاستعمارية الفرنسية أثناء غزوها للجزائر على جمع المقتنيات الأثرية، ومن ثم جردها لوضعها تحت سلطة الجهات المختصة فيما بعد بغرض دراستها، ومن بين الشخصيات البارزة التي ساهمت في جمع اللقى والقطع الأثرية التلمسانية نجد بعض العسكرين الفرنسيين، ويرجع وليام مارسي لهم الفضل الكبير في منح متحف تلمسان أنفس القطع الأثرية على رأسها الذراع الملكي وشاهد قبر البعيديل أخر ملوك غرناطة، وأكبر دليل على دورهم هو أن أهم القطع كانت مخزنة على مستوى " مستودعات الهندسة العسكرية" (وليام مارسي، 2011، ص.10).

بالإضافة إلى دور العسكريين الفرنسين في جمع القطع الأثرية عند عملياتهم التنقيبية وأثناء مهماتهم العسكرية، فإنهم مارسوا الضغط باسم السلطات الفرنسية لاسترجاع القطع والبقايا الأثرية التي وجدها المعمرون في الأراضي التي منحت لهم، وأجبروهم على تقديمها لمتحف تلمسان على سبيل الهبة (وليام مارسي، 2011، ص.10) كل هذه القطع واللقى كانت مادة مغرية للأخوين وغيرهم من المؤرخين الفرنسيين الذين وجدوا فيها ضالتهم واشباع رغبتهم البحثية.

6- التنقيب:

لم يكتف الأخوين بما مجد في مختلف المتاحف فقد كانا شغوفين بالبحث والتنقيب فقد مارس الأخوين مارسي التنقيب بأنفسهما في بعض الأحيان، وفي مرات أخرى استعانا بمعاونين.

7- الاعتماد على الدراسات والأبحاث السابقة:

في الجانب التوثيقي اعتمد الأخوين على الدراسات والأبحاث السابقة، ومنها بعض البطاقات التي كانت ملصقة بالقطع الأثرية والتي تحوي معلومات ثمينة(وليام مارسي، 2011، ص.15) عن مكان

العثور على المخلفات الأثرية وزمان العثور عليها وغيرها من المعلومات، وهنا أشار وليام مارسي لضياع بعض سجلات الجرد ومعها بعض المقتنيات الأثرية الثمينة التي كانت ضمن أندر القطع بمتحف تلمسان، وفي هذا الصدد يتحدث عن اعتماده على أبحاث سابقيه بقوله: (وأثناء شروعي في رقابة رصيد أبحاث بروسلار المنشورة، لاحظت افتقاد الكثير من الكتابات الأثرية التي اكتشفها هذا العالم بنفسه إلى الأبد)، (وليام مارسي، 2011، ص.13)، قد يرجع سبب فقدان بعض القطع الثمينة إلى بيعها من طرف العسكريين أو حتى مسؤولي المتحف، أو أخذها معهم إلى فرنسا وتهريبها، أو تزيين آخرين لبيوتهم ببعض القطع خاصة الأواني أو التحف الجميلة، بالإضافة على الاعتماد على الدراسات الأثرية السابقة فهناك نوع آخر من الدراسات اعتمد عليه الأخوين مارسي تمثل في الدراسات التي عنيت بالجانب السوسيومكاني، حيث بحثا في التكوين الاجتماعي والمادي للأماكن وكيف أصبحت على ماهي عليه والبحث عن أهميتها وكيفية تفاعل البشر معها (.Gieryn Thomas, 2000 , p 463-496) .

8- التحقيب الزمني:

اعتمد الأخوين على التحقيب الزمني حيث شملت كتبهما على الكثير من التواريخ، سواء تواريخ إنشاء العمائر أو تواريخ الشخصيات الوارد ذكرها في مؤلفاتهم، ومن أمثلة ذلك أن جورج مارسي حدد تاريخ 530هـ / 1135م كتاريخ للزيادات التي ألحقت بالجامع تلمسان الأعظم (Marçais ,1949-1950 ,p.270 Georges) .

رابعا: منهج الأخوين مارسي في الدراسة التاريخية والنقدية للآثار التلمسانية:

انطلاقا من مقولة: (تفقد الوثيقة المكتوبة امتيازاتها في الوقت الذي يحتل فيه علم الآثار الصدارة)، (جاك لوغوف، 2007، ص.166)، فإن البحوث والمؤلفات التي قام بها الأخوين جورج ووليام مارسي كانت معظمها أذا لم نقل كلها مستندة على المخلفات الأثرية التي عايناها بنفسيهما، والتي تمت تحت رعاية مصلحة معالم الجزائر التاريخية، التابعة لإدارة الاحتلال الفرنسي بالجزائر سنة 1902م، فقد ركز في معظمها الأخوين مارسي على الجانب الفني والمعماري لعاصمة المغرب الأوسط تلمسان، مؤكدين في أحايين كثيرة على فضل غير التلمسانيين في هذا الإرث الحضاري، وسأستعرض بعضا من أعمالهما محاولة الكشف عن منهجهما في تدوين تاريخ الجزائر، بناء على ما توفر لديهما من مادة أثرية وتاريخية.

1/ دراسة وليام مارسي حول مقتنيات متحف تلمسان:

تعد دراسة وليام مارسي حول مقتنيات متحف تلمسان، أقدم وثيقة حول جرد مقتنيات متحف تلمسان سنة 1898م، فقد جرد بنفسه شواهد القبور والكتابات الجنائزية التي عثر عليها في مناطق مختلفة من تلمسان وجمعت في متحف المدينة، وقال وليام في مقدمة كتابه أنه ألفه لأجل العلم وأهميته الكبيرة (وليام مارسي، 2011، ص).

نجد العديد من القطع الأثرية التي حوتها الدراسة تعود لمقابر وأضرحة سكان المغرب الأوسط خاصة الحاضرة تلمسان، والتي حوت معلومات أثرية وتاريخية مهمة عن بناء السقائف والقباب والروضات، ونمط تزيين بعض القبور التي يعود أصلها لبرجوازية تلمسان في العصر الوسيط، وقد اعتمد وليام المنهج الوصفي ودليلنا في ذلك تصريحاته بمشاهدة العديد من المعالم من ذلك قوله: (تلمسان توفر لدراسات الفن الإسلامي في مساجدها التي ما تزال قائمة على هيأتها الأصلية من غير أن يعتريها تغيير ، وفي أطلال أسوارها وثائق مادية في منتهى الأهمية الأثرية)، (وليام مارسي، 2011، ص.11).

2/ المعالم الأثرية العربية لمدينة تلمسان:

يعتبر كتاب المعالم الأثرية العربية لمدينة تلمسان، هو محور الدراسات التاريخية والأثرية التي قام بها الأخوين سواء كمؤلفين منفردين أو الأعمال التي جمعتهما معا، فقد ضمنا هذا المؤلف حوصلة تجربتهما في الكتابة التاريخية، كما شهد هذا الكتاب على توجههما ومنهجهما والهدف من تخصصهما في دراسة الآثار التلمسانية، كما يمكن أن نستنبط مجموعة التوجهات الرئيسية في الكاتبة التاريخية وفق أهدافهما من هذه الدراسة، ومنهجهما في الكتابة والذي تؤكده النقاط التالية:

1.2 الحركات الاستعمارية ليست وليدة سنة 1830:

عمل الأخوين مارسي على إثبات أن المغرب الأوسط شهد على مدى تاريخه الطويل العديد من عمليات الغزو وكان آخرها الغزو التركي حسبهما، وبالتالي فالوجود الفرنسي ما هو إلا حلقة جديدة في تاريخ المنطقة، وأمام هذا الطرح جاز لي التساؤل حول الهدف من هذه الدراسة، هل هي دراسة أثرية علمية؟ أم أنها ضمن مخطط معد مسبقا لتغليب فكرة أن أهل المنطقة ألفو الرضوخ والخنوع لكل من يحل بأرضهم!

في الحديث عن الوجود العربي الإسلامي خاصة المرابطي أو الموحدي ذكر مقرونا بكلمة غزو ودليل ذلك قولهما: (غزو المرابطين... غزو الموحدين) (جورج ووليام مارسي ، 2011، ص.29-30)، أما فترة الوجود التركي فقد أطلقا عليها كلمة (الهيمنة التركية)،(جورج ووليام مارسي ، 2011، ص.44)إن كلمة غزو ليست هي نفسها كلمة فتح ولا حتى كلمة " تحت سيطرة" وبحكم أنهما ضليعان في اللغة العربية، فلا اعتقد أن استعمالهما للمصطلح غزو كان لقلة درايتهما، بل هو مقصود لأنه يخدم ايديولجيتهما، لأننا فيما بعد وعند حديثهما عن الوجود المريني في تلمسان نرى أنهما استعملا كلمة "فتح" بدل كلمة غزو.

ليس هذا فقط بل تعداه الأمر لتثمين الوجود المريني ووصف حال التلمسانيين بالجيدة، في فترة وقوع تلمسان تحت الحصار (698-706هـ/ 1299-1307م)، أو لما كانت تحت السلطة المرينية (لم تكن تلمسان في حكم أسيادها الجدد في كبد، فقد شيدوا أجمل المعالم العمرانية التي تزخر بها ... وتعتبر ملحقات تلمسان الهندسية المنصورة وسيدي الحلوي من إنجزاتهم)، (جورج ووليام مارسي ، 2011، ص.39) وهذا ما أكداه بقولهما: (تدين تلمسان للمرينيين بثلاث مبان كانت مفخرة لها... وهم

المعمرين الفعلين لهذه المنطقة) (جورج ووليام مارسي ، 2011، ص.39-40)، أمام هذه التصريحات لا يمكن بأي حال من الأحوال وصف وضع تلمسان في فترة السيطرة المرينية بالجيدة، حتى ولو صدقنا مجازا بفضلهم في إنشاء المعالم المعمارية الضخمة، فالوضع الكارثي الذي حل بالمجتمع وما رصدته لنا المدونات الوسيطة من تخريب المرينيين لكل ما وجدوه في طريقهم إلى تلمسان، خير دليل على أن هدف الوجود المريني كان إزالة ملك الزيانيين وكل من يوالهم بالطاعة، فالتنسي (ت899هـ/ 1494م) وصف حال أهل تلمسان زمن الوجود المريني قائلا: (كان عليهم بلاء عظيم)، (التنسي، 1985، ص.132)، ووصف ابن خلدون (ت808هـ/ 1405م) ما وصل إليه سكان تلمسان وما جوارها (أن الهلاك بالجوع أكثر من القتل) (ابن خلدون، 2011، 234/1) وشاركه نفس الوصف (ابن مرزوق،2008، ص. 203) أما عن أحوال العمران فقد تعرضت المنازل للهدم والاتلاف بسبب القصف بالمنجنيق ومختلف الآلات الحربية التي استعملها المرينيون لبسط سيطرتهم على تلمسان (ابن خلدون،2011، 28/7)، ومن نتائج الوجود المريني بتلمسان (خراب القصور والدور والأسوار والأبراج)، (عبد العزيز فيلالي، 2002، 157/1) من خلال ما يبق فإن الأخوين مارسي شهادتهما مجروحة ولا يمكن الأخذ بها دون إعادة تمحيصها ومقارنتها مع النصوص التاريخية.

2.2 التشكيك:

في حديثهما عن مدارس تلمسان ذكرا بأن فيها خمس مدارس جيدة البناء مزينة بالفسيفساء وأن من شيد بعضها هم ملوك فاس(جورج ووليام مارسي ، 2011، ص.22)، هنا الأخوين حتى وإن أقرا بوجود بنايات غاية في الابداع، فإننا نجدهما لزاما ينسبان بعضها أو كلها لغير أهل تلمسان، من ذلك أنهما أرجعا فضل بناء بعضها لملوك فاس المرينيين دون ذكر أن من بنى مدرسة أولاد الإمام هو السلطان الزياني أبو حمو موسى وكذلك الأمر بالنسبة للمدرسة التاشفينية، وللمزيد حول تعمير الزيانيين لهذه المدارس وغيرها ينضر: (رشيد بوريبة، 1979، ص77) .

لقد صرح الأخوين أكثر من مرة بأن دراستهما التاريخية لآثار تلمسان الزيانية ليس رصد مساهمة أبناء تلمسان في حضارتها المعمارية بل الهدف حسبهم هو: (الهدف وضع حصيلة تاريخية متسلسلة لما تدين به تلمسان من مجد معماري لأسيادها السابقين)،(جورج ووليام مارسي ، 2011، ص.24) ولتحقيق هذا الغرض فإننا نجدهم ينسبون الفضل للمرينيين تارة أو للإغريق البيزنطيين والمسيحيين تارة أخرى، حتى أنه وصل بهما الحد لما أوردا اسم أحد النحات وكان جزء من اسمه " الجزائري المراكشي" فأكد جورج أنه جزائري المولد مراكشي المسكن، ولم يكتف بهذا بل نسبه إلى الأندلس لمجرد كونه مراكشي المسكن بقوله:(فهو من ثم أندلسي قح) (جورج ووليام مارسي، 2011، ص.56)، حيث يؤكد جورج مارسي على قوة التأثير الأندلسي خاصة نمط العمارة القوطية من خلال اللاجئين الذين

استقروا بالدولة الزيانية ويتضح ذلك حسبه في جامع تلمسان (جورج مارسي،2016، ص.152)؛(جورج مارسي، 1991، ص.337).

لم يكتف منهجهم في التشكيك في نسب معظم العمائر التلمسانية لغير الزيانيين، بل تعاده الأمر إلى زرع فكرة أن اتجاه قبلة المسلمين بتلمسان ليس دقيقا، وأنهم يصلون لغير القبلة الحقيقية، وأن جميع مساجد تلمسان مشكوك في اتجاه قبلتها وكانت حجتهم في طرحهم (استهجن عابروا السبيل عدم دقة وجهة قبلة مساجد المغاربة)، (جورج ووليام مارسي، 2011، ص.61)، إذا كانت فعلا وجهة القبلة غير صحيحة بماذا نفسر إذن بقاء بعض المساجد التاريخية الزيانية على حالها إلى يومنا هذا وصلاة التلمسانيين بها دون تغيير أو تعديل لوجهة القبلة.

3.2 التشبيه:

إذا لم يثبت نسب بعض المباني لغير التلمسانيين، فإن الاخوين نسبا نمط البناء أو شكله للغير في محاولة لتشكيك في قدرة الزيانيين على الانفراد بالتصميم وفق خصوصية المنطقة، من ذلك وصفهم لفنادق تلمسان بانها افريقية الطابع، (جورج ووليام مارسي، 2011، ص.22) ، حتى أن الأمر وصل بهما لنسب مخطط المسجد التلمساني بأنه هو ذاته المعتمد في المشرق أو بإسبانيا"(جورج ووليام مارسي، 2011، ص.58) وكثيرة هي الأمثلة على طرحهما مثل:

- "ترتيب المحراب في المسجد هو الترتيب المعتاد في المشرق بكنيسة القديسة صوفي – سانت صوفي يالقسطنطينية"، (جورج ووليام مارسي، 2011، ص.59)
- " مخطط بناء القبة التي تتقدم المحراب...يذكرنا بمخطط الكنائس المسيحية البدائية" (جورج ووليام مارسي، 2011، ص.59)
- " تشيد المئذنة التلمسانية دوما على قاعدة مربعة تذكر ببرج جيرالد بإشبيليا"(جورج ووليام مارسي، 2011، ص.64)
- يعلو محور السطح صرح نهائي مربع كأبراج الجرس(جورج ووليام مارسي، 2011، ص.65)

هذه الأمثلة وغيرها كثيرة الورود في مؤلفهما لدرجة أنه لا توجد صفحة تقريبا دون أن تكون فيها إشارة لتقليد التلمسانيين لغيرهم في نمط البناء.

4.2 المقارنة :

اعتمد الأخوين على المقارنة بين النمط المعماري التلمساني والمصري والاسباني وغيرها، وهذا راجع لتعرفهما على هذه الآثار المعمارية بالدراسة والتحليل، فقد ألف جورج مارسي مثلا مجموعة من

الكتب والدراسات حول آثار هذه المدن وغيرها، وهو ما سمح له بإجراء مقارنة بين مختلف الأعمال العمرانية، لكنني سجلت بأن معظم ملاحظاته كانت تصب في أن ما أنجزه التلمسانيين أقل قيمة، وهو تقليد خال من الإبداع، كما نفى عن التلمسانيين معرفتهم بأسس وجماليات العمارة في حديثه عن قصر يغمراسن وأن الطابع البدوي هو الغالب على القصر وأن لا فخامة فيه حيث لم يستطع التخلص من بساطة أسلافه (جورج مارسي، 1991، ص.338) حتى أنه لم يكتف بمقارنة المباني بل قارن بين تجهيزات المساجد التلمسانية وتجهيز الكنائس المسيحية في بلاده وأبدا اندهاشه لأنه على ما اعتقد كان يتوقع وجود الكراسي والطاولات كما في الكنائس لكنه يقول: (بأن أثاث المساجد زهيد العدد وبسيط)، (جورج ووليام مارسي، 2011، ص.63) ربما يقصد بافتراش الزرابي في الأرض وهو أثاث جميع المساجد، عن جورج لم يأخذ في عين الاعتبار أن طريقة العبادة في المسجد تختلف اختلافا كليا عن الكنسية فطقوس صلاة المسلمين تقتضي الركوع والسجود على الأرض وهذا الأمر لا يوجد بكنائسهم التي عادة ما يجلس فيها المصلون على الكراسي، بالإضافة على أن الفترة التي تحدث فيها عن الأثاث كانت تلمسان قد مضى على زوال ملك الزيانيين بها ثلاثة قرون.

كما أنهما أشارا إلى أن النافورات العمومية بتلمسان لم تحض قط بالدور الذي لعبته بالمشرق(جورج ووليام مارسي، 2011، ص.70)، دون أن يذكرا لنا ما هو دور النافورات في المشرق! مما يدعونا للتساؤل ما المقصود بقولهما؟ وقاما كذلك بعمل مقارنة أخرى بين عمل الصناع العرب والغربيين في القرون الوسطى، وذكرا بأن العرب ذو صنعة رديئة، وينقلون عن غيرهم وما يلفت الانتباه هو تبريرهما لذل بأنه يحق لهما قول ذلك (يمكننا القول دون أن نتهم بالقساوة)،(جورج ووليام مارسي، 2011، ص.78).

5.2 التشويه:

عمل الأخوين على تشويه المنجزات الزيانية والتقليل من مكانة السلاطين الزيانين واتهامهم بأنهم السبب في توقف عملية التشييد بسب طبيعة حكمهم الهش، (كان من الطبيعي أن تنتهي حركة العمران في ظل هشاشة الحكم، فالمعالم الزيانية المشيدة آنذاك زهيدة العدد وبخسة الأهمية)، (جورج ووليام مارسي، 2011، ص.41)، كما نجده يناقض نفسه من جهة يدعي بأنه لا يملك المعلومات التاريخية حول أعمال الملوك الزيانيين المعمارية لعدم توفر الأدلة، إلا أنه سمح لنفسه أن يصدر حكما على مستوى هذه المنجزات ويصفها بالدونية، (لا تتوفر لدينا معلومات تاريخية عن نشاط الزيانيين المعماري الذي بدأ سقيما في أوائل عهدهم)، (جورج ووليام مارسي، 2011، ص.43)، ويتضح الاتهام بالدونية كذلك في رأيهما حول المنقوشات الخشبية بمدينة تلمسان والتي وصفت بأنها ليست عظيمة الشأن ولا يوجد منها نماذج فريدة مثل كراسي المصحف الجميلة التي تفخر بها بعض

المساجد في مصر، (جورج ووليام مارسي، 2011، ص.64) دون أن يأخذا بعين الاعتبار الاختلاف المذهبي بين المذهب الحنفي بمصر والمالكي بالمغرب والذي ينكر التزيين ويحرم الزواق في المساجد، فالسدة بمسجد تلمسان بالنسبة إليهما عادية والمنبر بسيط الرسم ضخم الجسم ولا يرقيان إلى جمال المنبر البيزنطي الطراز بمسجد القيروان(جورج ووليام مارسي، 2011، ص.64).

إن استعمال مصطلح الاستعارة المعمارية(جورج ووليام مارسي، 2011، ص.48) لوصف شكل المنجزات المعمارية بتلمسان تبعث في نفس القارئ لمؤلفات الأخوين أن جميع المباني ودون استثناء، إنما هي تقليد ومحاولة للتشبه بعمران الدول المجاورة وأن التلمسانيين لا يفلحون في شيء غير النسخ عن الغير، حتى أنهما اتهما العرب بتحويل الكنائس الجميلة على مساجد (جورج ووليام مارسي، 2011، ص.47)، لا نعلم يقينا هل يقصد عرب الفتح أو الزيانيين، لكن وجب الوقوف أمام الواقع التاريخي الذي أثبت أن الفرنسيين هم من قام بتحويل المساجد جيدة البناء إلى كنائس أو مقرات شرطة أو حتى اسطبلات.

6.2 تحميل غيرهم مسؤولية تخريب المعالم الأثرية بالجزائر عامة وبتلمسان خاصة:

لم يكن هدف الإستدمار يوما البناء والتشييد بل الهدم والتشويه، لكننا نجد الأخوين مارسي حملا الأتراك العثمانيين في فترة تواجدهم بالجزائر مسؤولية زوال المعالم الأثرية أو تشويهها خاصة مدارس تلمسان الخمس المذكورة سابقا، (فات آوان الرثاء وهجاء همجية أسياد تلمسان في القرون الثلاثة الماضية)، (جورج ووليام مارسي، 2011، ص.24)، في حين حاولا إثبات حضارية الاستعمار الفرنسي من خلال طرحهما لفكرة أن فرنسا عملت وبجهد كبير وحرصت لحماية والحفاظ على المعالم الأثرية الزيانية، (يجب المحافظة بغيرة على أطلالها النفيسة)، (جورج ووليام مارسي، 2011، ص.24) .

7.2 إصدار الأحكام:

أعطى الإخوة مارسي لنفسهما - خاصة جورج - الحق في إصدار أحكام حول تاريخ آثار تلمسان وأجازا لنفسيهما الافتراض أن إسهام الصناع الإسبان هو أساس الجمال الخلاب للمعالم التي شيدها الملوك المرينيون بعد فتح تلمسان (جورج مارسي، 2011، ص.56) على حد تعبيرهما، سبق وأن تم استعمال كلمة غزو لوصف الوجود المرابطي والموحدي وحتى العثماني، بينما نجدهما هنا استعملا كلمة فتح لما تعلق الأمر بالوجود المريني.

ومن بين الأحكام الأخرى التي أصدراها أن الصناع والبنائيين الزيانيين رديئين (جورج ووليام مارسي، 2011، ص.80)، وأن انجازاتهم غير متينة فمثلا أعمدة المعالم التلمسانية هشة نوعا ما (جورج ووليام مارسي، 2011، ص.88)، إذا سلمنا بهذا الطرح بماذا نفسر بقاء العديد من المعالم التلمسانية التي مازالت إلى الآن وكأنها بنيت في زمن غير بعيد.

خامسا: الدراسة النقدية لمنهج الأخوين مارسي في دراستهما للآثار التلمسانية:

يرى الباحث والمؤرخ عبد العزيز فيلالي أن المدرسة التاريخية الفرنسية لم تتورع في التحامل على المجتمع المغربي في عصوره المختلفة، بأحكام ظالمة مليئة بالقرارات الخاطئة التي بنتها على افتراضات وتخمينات، اختلقتها للتنكر لحضارتهم والتجني على أعلامهم وثقافتهم وطبائعهم وتزوير حقائقهم وتزييف أخبارهم، ليس بالاعتماد على أمهات المصادر الأساسية والسند التاريخي الحقيقي، وإنما على الأفكار الواهية والانطباعات المغرضة والتأويلات الخالية من الصحة، بالرغم من محاولاتها الاحتفاظ بالمظهر الأكاديمي في كتاباتها وتدوينها، إلا أنها كانت تخفي في كثير من الأحيان دوافع كامنة للسيطرة والهيمنة على السكان المحليين الأصليين (عبد العزيز فيلالي، 2012، ص.11)، وهو ما استشفيناه من خلال مطالعة مؤلفات الأخوين وليام وجورج مارسي حول تاريخ الجزائر وتلمسان بشكل خاص، وما الاعتراف الصريح بدور الاستعمار الفرنسي في تخريب جزء كبير من المعالم المعمارية لمدينة تلمسان إلا تأكيد على همجية الاستعمار وهو ما أكده الأخوين في قولهما: (ونعلم أن هذا الاطار سيضمحل تدريجيا فحرص الحكومة على الفن لا يمكن أن يحمي كافة الأحياء التي لا ضرورة في المحافظة عليها)،(جورج ووليام مارسي، 2011، ص.128) ما يدعونا للتساؤل ما هو الاطار الذي استندت إليه فرنسا في تخريب وإزالة معالم وآثار تلمسان؟

لم يكن رأي الباحث المختص في التاريخ الوسيط الدكتور فيلالي عبد العزيز وحده من استهجن طريقة التاريخ لتاريخ الجزائر من طرف المستشرقين الفرنسيين ، فهناك من أقر بأن المؤرخ الغربي يلجأ إلى تفسير الظواهر بمنطقه الفاسد دون أن يجرء أحد على توبيخه، (عبد الله العروي، **1996**، ص.83-84)، ورأينا كيف فسر الأخوين التقدم والازدهار والرقي الذي شهدته المباني والعمائر الزيانية، وكيف نسبوا الفضل في ذلك لغير التلمسانيين بما لا يدع مجالا للشك من أن الفكر الاستعلائي للرجل الأبيض، لازم كتاباتهم وأبحاثهم وأنهم كانوا معول هدم وتشويه لا بناء في يد الاستعمار الفرنسي العنصري، ولم تخل كتاباتهم من بث التلفيقات والاتهامات للزيانيين بأنهم أقل شأنا من غيرهم، لا لشيء إلا ليشككوا الجزائريين بمصداقية أهم محطاتهم التاريخية التي عرفت فيها الجزائر ازدهارا منقطع النظير، محاولين ضرب الوسائل الوجدانية والروحية والهوية والتاريخ والانتماء الجغرافي والحضاري للشعوب المستعمرة بما فيها الشعب الجزائري، بزرع الشكوك في قدرة المهندسين والمعمارين التلمسانيين على انجاز أي صرح معماري دون النقل والتقليد عن غيرهم، حتى تسود الفكرة ليسهل بذلك قيادتهم والسيطرة عليهم وعلى مقدراتهم الوطنية.

الخاتمة:

من خلال التعرف على الأخوين وليام وجورج مارسي وكتاباتهما حول آثار تلمسان الزيانية، والتعرف على منهجهما في الكتابة نخلص في الأخير من خلال هذه الدراسة إلى مجموعة من النتائج أهمها:

- دراسة الأخوين مارسي فيما تعلق بآثار وتاريخ تلمسان المعماري في الفترة الزيانية ركزا فيه على تأثر العمارة الزيانية بالمؤثرات الخارجية سواء أندلسية أو مرينية أو من مصر أو حتى قوطية وفارسية وغيرها، ونسبوا لها الفضل في التقدم الذي أحرزته المباني التلمسانية.
- اعتبر الأخوين أن نمط العمارة الزياني تابع لنمط العمارة المسيحي في كثير من المباني خاصة في المساجد، بل وأكدوا حتى على أن مسلمي تلمسان كانوا يصلون لغير القبلة لخلل معماري في محاريبهم، وأن معظم مساجدهم كانت في الأصل كنائس للمسيحين.
- ركزت دراسات الأخوين على بعض العمائر دون غيرها، بل صرحا بأنه ليس ضروريا الإبقاء والمحافظة على نمط العمارة الزيانية في كثير من الأحياء خاصة التي وقعت تحت يد المعمرين إذ قاموا بهدمها وبناء مساكن محلها.
- اعترف الأخوين بأن الكنوز الأثرية والقطع النفيسة قد نهبتن وأخرى قد خربت من طرف المعمرين أو العسكريين الفرنسيين .
- التصريح في مرات عديدة بأن أهداف دراستهم هي إثبات أن الفضل في إنشاء الآثار التلمسانية يرجع لغير الزيانيين.
- من العبث القول بما جاء به الأخوين دون تمحيص ودون مقارنة مع بقية المصادر التاريخية الأخرى، خاصة للمؤرخين والرحالة العرب والمسلمين، الذين وصفوا العمارة التلمسانية وصفا دقيقا، مع ذكر مساهمة كل أمير أو سلطان زياني، وهو ما حفظته لنا الشواهد التاريخية التي حوتها هذه الصروح المعمارية من أسماء لشخصيات ساهمت في البناء وحتى تاريخ انجاز مختلف المشاريع العمرانية.
- على الرغم من محاولة الأخوين عدم إبداء تحاملهما على الحكام الزيانيين، إلا أن المتمحص لمؤلفاتهما يتأكد لا محالة من أن كتاباتهما جاءت خدمة للمشروع الاستعماري وإلغاء الهوية الوطنية والتاريخية لكل ما هو جزائري.
- أخيرا أتمنى أن تخضع مؤلفات الأخوين وليام وجورج مارسي وغيرهم من المستشرقين الفرنسيين الذين كتبوا حول تاريخ الجزائر وفي أي ميدان، لإعادة قراءة وتمحيص وغربلة وإزالة كل ما من شأنه أن يشكك في حضارة وتاريخ وقدرة الجزائريين على البناء والتعمير والتفكير والتسيير.

قائمة المصادر والمراجع:

المحررات باللغة العربية:

1) التنسي محمد بن عبد الله (ت 899هـ / 1494م). (1985). تاريخ بني زيان ملوك تلمسان مقتطف من كتاب نظم الدر والعقيان في بيان شرف بني زيان ، تحقيق: محمود بوعياد، الجزائر، المكتبة الوطنية الجزائرية.

2) ابن خلدون عبد الرحمن (ت808هـ/1405م). (2010). كتاب العبر وديوان المبتدأ والخبر في أيام العرب والعجم والبربر ومن عاصرهم من ذوي السلطان الأكبر. مراجعة: سهيل زكار. بيروت. دار الفكر للطباعة والنشر. 8أجزاء ،

3) بدوي عبد الرحمان. (2003). موسوعة المستشرقين. ط04. بيروت. المؤسسة العربية للدراسات والنشر.

4) شوقي أبو خليل. (1998). الإسقاط في مناهج المستشرقين والمبشرين. ط2. بيروت.دار الفكر المعاصر.

5) العروي عبد الله. (1996). مجمل تاريخ المغرب. ط05. المغرب. الدار البيضاء. المركز الثقافي العربي.

6) العروي عبد الله. (2005). مفهوم التاريخ. ط04. المغرب. الدار البيضاء. المركز الثقافي العربي.

7) فيلالي عبد العزيز. (2002). تلمسان في العهد الزياني- دراسة سياسية، عمرانية، اجتماعية، ثقافية- ، الجزائر. المؤسسة الوطنية للفنون المطبعية والنشر والتوزيع ، جزءان.

8) لوغوف جاك. (2007) . التاريخ الجديد. ط01. ترجمة: محمد الظاهر المنصوري. بيروت. المنظمة العربية للترجمة.

9) مارسي وليام. (2011). مقتنيات متحف تلمسان. تعريب: أرزقي شرقي. الجزائر. المؤسسة الوطنية للنشر والتوزيع.

10) مارسي جورج. (2016). الفن الإسلامي: ترجمة عبلة عبد الرزاق، القاهرة. المركز القومي للترجمة والاشهار الاسكندرية.

11) مارسي جورج.(1991). بلاد المغرب وعلاقتها بالمشرق الاسلامي في العصور الوسطى. ترجمة: محمود عبد الصمد هيكل. مصر. الاسكندرية. مطبعة الاشهار الاسكندرية.

12) مارسي جورج.(1936).مقدمة عن تلمسان. المجلة الافريقية. العدد 368-369. ص ص 99. 100.

13) محمود عبد الواحد محمود. (2013). مدرسة الحوليات الفرنسية وتجديد كتابة التاريخ – محاولة للتأصيل في الفهم العراقي. ط01. بغداد. دار عدنان.

14) موحن وليد. (2017). مدرسة الحوليات الفرنسية ظروف النشأة وأهم الأفكار. مجلة ليكسوس في التاريخ والعلوم الإنسانية. العدد.11 ص ص 170- 177.

15) ابن مرزوق أبو عبد الله محمد التلمساني (ت781هـ/1379م). (1981). المسند الصحيح الحسن في مآثر ومحاسن مولانا أبي الحسن، تحقيق: ماريا خيسوس بيغيرا، الجزائر، الشركة الوطنية للنشر والتوزيع.

16) يحي مراد. (2004). معجم أسماء المستشرقين. ط01. بيروت. دار الكتب العلمية.

17) المحررات باللغة الأجنبية:

18) Aron Raymond. (1938) Introduction à la philosophie de l'histoire. Paris. Gallimard.

19) André Burguière. "Histoire d'une histoire: La naissance des Annales," Annales. Économies, Sociétés, Civilisations, vol. 34, no. 6 (1979), pp. 1347-1359.

20) Evelyne Disdier (2017) .CENTRE NATIONAL DE LA RECHERCHE SCIENTIFIQUE - UNIVERSITE D'AIX-MARSEILLE

21) Maison méditerranéenne des sciences de l'homme Aix en Provence Médiathèque Iconothèque et archives de chercheurs Etat des fonds d'archives.

22) Alberte Soduillet et Potraite de Georges Marcais. Rvue Algeria. Fevrier. 1952 p

23) Marcais Georges et William. (1903) Les Monuments Arabes De Tlemcen. Paris. Albert Fontemoing Editeur .

24) Marcais Georges Sur la grande Mosquee de Tlemcen in an

25) Marcais, Georges:. (1950).Tlemcen Viele et D'histoire, paris. édition laurens collection.

26) Marcais Georges et William (1903). Les Monuments Arabes de Tlemcen. Paris.Albert Fontemoing Editeur.